الأربعاء 22 جمادى الأولى 1426 هـ - 29 يونيو 2005 - السنة 34 - العدد 11515 - الكويت

كافة حقوق النشر محفوظه لشركة دار القبس للصحافة والطباعة والنشر

ثورة إيران تلد نفسها

د.احمد بشارة

فوجئ العالم بصعود رجل مغمور إلى قمة السلطة التنفيذية في إيران في اختراق غير مسبوق، وبخلاف جميع التوقعات. وبحكم طبيعة النظام السياسي الإيراني الذي تهيمن عليه طبقة متجانسة من الملالي، وتتحكم في جميع خيوط لعبته السياسية لا نظن أن فوز محمود احمدي نجاد كان مفاجأة لها. فالنظام الإيراني، الذي يسيطر على جميع مناحي الحياة، لا يمكن أن يترك عملية اختيار الرئيس للصدف أو بطاقات المقترعين. فحتى في أعرق الديموقراطيات لا يأتي الرئيس بالصدفة، وإنما من خلال ماكينة الانتخابات التي تستجيب للمؤثرات الشعبية وبشفافية عالية. الفرق في حالة إيران - مثلها مثل الديموقراطيات المزيفة - أن ماكينة الانتخابات تحركها قوى خفية في قمة هرم الدولة وعبر ألاعيب متنوعة. كانت أولى الألاعيب تشذيب قائمة المرشحين من أكثر من ألف شخص إلى سبعة فقط. ثم أضيف ثامن (مصطفى معين) بأمر من المرشد علي خامئني فقط. وبعد نتائج الجولة الأولى احتج المرشحون المنتقون، بمن فيهم رئيس البرلمان مهدي كروبي والرئيس المنصرم خاتمي، على تدخل أياد خفية في مسار الانتخابات. وقبل فرز أصوات الجولة الثانية تنبأت صحيفة جيهان المحافظة مساء الجمعة بفوز احمدي نجاد. ثم جاء دور رفسنجاني - الرئيس الأسبق ومهندس النظام ورئيس أهم هياكله - ليذكر الجميع «بالوسائل القذرة» عبر امكانات الدولة للتأثير على نتائج الجولة الثانية. وأهم مفارقات نتائج الانتخابات الإيرانية الأخيرة ليس سقوط علي أكبر هاشمي رفسنجاني أو فوز الرجل المجهول احمدي نجاد، ولا علاقة لفوز الأخير بالشعارات الغريبة التي حملها. فاحمدي نجاد ابن الثورة ورضع الفكر الخميني من ثدييها. وكان طالباً عام 1979 عندما احتل وزملاؤه السفارة الأميركية، وحمل السلاح دفاعاً عن الثورة، وحارب الأكراد والتركمان. بل قاد فرقة كوماندوس خمينية لاغتيال منشق كردي في فيينا عام 1983 وأصيب في العملية. وظل احمدي نجاد وفياً لمثل الخميني. ورغم ما يقال عن قاعدته بين الفقراء وحسن أداءئه في بلدية طهران، فان قاعدة احمدي نجاد الأساسية هي في الحرس الثوري وميليشيات الباسيج (قرابة 10 ملايين) المشكلة من الفقراء وأبناء الريف والبسطاء. فهؤلاء هم الذين هبوا بالتواجد المسلح والكثيف قرب مراكز الاقتراع انتصاراً له. ومن هنا يمكن فهم فوز احمدي نجاد على أنه «انقلاب مرتد» في الثورة وإيهام العامة بالعودة إلى الجذور الخمينية كي يستأثر الحرس الثوري وميليشيات الباسيج بالسلطة والانتقام من تبوؤ الإصلاحيين الصدارة. كما أن التيار الخميني الذي يمثله هؤلاء يستشعر الفشل والتردي اللذين أصابا الثورة بعد أكثر من ربع قرن. فنسبة البطالة تقارب 25% وأغلبها بين الشباب، ومعدل التضخم السنوي أكثر من 17% يأكل الدخول المتواضعة أساساً (بمتوسط 2000 دولار في السنة)، وثلث الدخل يذهب للمواد الغذائية، والفوائد على القروض الشخصية بين 30 - 35%. وإيران النفطية تستورد ما قيمته مليار دولار سنوياً من وقود السيارات. الفساد والرشوة والاستئثار بالثروة والنفوذ باسم رجال الدين حديث الناس، فأكثر من 30 ألف شركة أقامها الملالي والمتنفذون للتكسب من عائدات النفط وكذلك تجارة التهريب الرائجة، بما فيها الخمور والمخدرات. والعجيب أن شعارات احمدي نجاد الانتخابية تدعو إلى إشاعة العدالة والقضاء على الفساد ومحاربة الفقر وتوزيع الثروة ورد الاعتبار للمستضعفين بعد 27 عاماً من حكم الملالي. وجميعها شعارات تستنهض الفقراء وتطعن في أداء كبار المسؤولين الإيرانيين السابقين، وفي صلب كرامتهم وأخلاقهم، رغم أنهم جميعاً من رجال الدين المقربين من المرشد. وهنا تكمن الحيلة. فكأنها محاولة ذكية لتبرئة الثورة وصد الأنظار عن فشل منطلقاتها وإدارتها للحكم، وتوجيه الاتهام إلى الغير. هكذا حال الثوار الآخرين: من ستالين في الثلاثينات إلى ماوتسي تونغ في السبعينات إلى طالبان في التسعينات. ثورة على الثورة، والثورة تأكل ابناوها. الشعار المرفوع تجديد الروح الثورية ومعاقبة العدو المفترض.. لكن واقعها هو إبعاد الشبهات عن الفشل الذاتي للنظام وتحميل الملامة على «الغير». فالقوى المحافظة التي تنادي بالإصلاح الآن تحت راية احمدي نجاد هي ذاتها التي أفشلت مشاريع خاتمي الإصلاحية وعطلتها، وحاربت الإصلاحيين على جميع الجبهات. فكيف لمن أعاق الإصلاح بالأمس أن يُفعّله اليوم؟ ثم إن السلطات جميعاً في واقعها الفعلي بيد المرشد خامئني. فلماذا لم يحرك ساكناً طوال هذه السنوات، وخصوصا أن المقصودين بالفساد واستغلال المناصب هم المحيطون به من رجال الدين؟ صحيح أن احمدي نجاد من خارج المؤسسة الدينية لكنه ابن النظام البار. وربما هنا تكمن الحيلة الأخرى: رفع الحرج والنقمة الشعبية عن الملالي والتيار الخميني من خلال واجهة مدنية مجهولة وضعيفة ومدينة لها. والبعد الآخر لفوز احمدي نجاد هو إعطاء نظام الملالي فسحة من الوقت، ربما ثماني سنوات أخرى عبر دورتين انتخابيتين، لبناء القدرات النووية الذاتية كي يضمن النظام أمنه وحمايته من احتمالات التدخل الخارجية والسيطرة على البلاد وإلى الأبد. ليس هناك من خطر على المنطقة من إحكام التيار المحافظ قبضته على مربع السلطة في إيران وصعود رئيس على شاكلة سادته، رغم تصاعد النشوة عند أنصاره في حزب الله وأشكالهم في دول المنطقة. فقبضة النظام الخميني عبر هيئاته المختلفة لم تغب يوماً عن الساحة كي تعود اليوم.

وأركان النظام الإيراني - بمن فيهم كبش الفداء هاشمي رفسنجاني - يدركون مصالحهم الحيوية جيداً. وستتغلب غريزة البقاء على جميع النزعات الثورية الموجهة أساساً للبسطاء . ولن يفسحوا المجال للرئيس الجديد لخلخلة الموازين. والملالي في المحصلة النهائية هم تجار دين، بقدر ما هم تجار دنيا. ولن يستبدلوا دنياهم بدينهم مهما غلت الشعارات. والفقراء الذين تدافعوا وراء احمدي نجاد همهم لقمة عيش كريم، ومأوى آمن والاستمتاع بملذات الحياة مثل رجال الدين. د. أحمد بشارة ـ